من الأدب الغربى

عندما يسأم الشاعر الحياة

للأستاذ إبراهيم سكيك

يتعرض كل إنسان لفترة من الزمن تطغى عليه فى خلالها موجة من اليأس يرى الحياة وهو يخوض عبابها عابسة مطرة لا يتلذذ بجمالها أو يبتسم لفاتنها؛ ولا يؤخذ بسحرها أو يبهر بروعتها ، فتبدو له بدائع الكون كئيبة قاتمة تبعث على الملل والضجر فينبعث منه أنين خافت وتأوه مكبوت، ويتردد فى نفسه خاطر الحزن واليأس، وتستمر بين جوانحه لوعات الشجن والأسى، ويلم بخياله طيف الموت والفناء ، ولا يزال على هذا الحال من العذاب والشقاء حتى ينبعث نور من الأمل يبدد دجنة الحياة وديجور اليأس

وقد مرت هذه الفترة اليائسة بكثير من شعراء العاطفة والوجدان فأذكت قرائحهم الشعرية وألهبت حواسهم الفكرية فنفحوا الأدب بما جاد به يراعهم من نظم ونثر . وفى هذا المقال رغبت أن أقتطف نبذاً فى هذا الموضوع من الأدب الإنكليزى أترجمه إلى قراء العربية :

أقتبس أولا قصيدة للشاعر المعروف « ملتون » الذى كثيراً ما يشبهه الأدباء بالمعرى قالها عند ما كف بصره وتسرب اليأس إلى نفسه وهذه ترجمتها :

عندما أفكر فى نفسى كيف فقدت نور بصرى قبل أن أقطع نصف الشوط الذى قد أقطعه فى هذا العالم المظلم الرحيب ، وكيف أن تلك الموهبة الأدبية التى تكمن فى نفسى ولا ريب أن فى كبتها قتل لتلك النفس التى ترغب فى استغلالها لخدمة خالقها وتقديم واجباتها إليه لئلا ينحى عليها باللائمة ، عندما أفكر فى كل ذلك أتساءل بلهف : هل يتطلب الله منى العمل فى حين أنه يضن على بنور البصر ؟ .

بيد أن « الصبر » يوقف هذه الشكوى ويبدد حيرتى فيجيب على تساؤلى قائلا « ليس الله فى حاجة إلى عمل الناس ومواهبهم ، وأن أولئك الذين يتحملون نيره اللطيف ليخدمون الخدمة الكبرى. نعم يخدمه أولئك الذين يقفون منتظرين قضاه من غير ضجر أو ملل . أما هو جل جلاله فنى غنى عنا ؛ لأن ملكوته عظيم يسعى فى مرضاته ألوف الملائكة الذين يجوبون البرارى والبحار دون تعب أو نصب . !!

* * *

وهذا الشاعر الروائى « سكوت » (١٧٧٠ — ١٨٣٢) يصف منظراً رائعاً يفقد روعته التى اعتادها لأنه كان فى أواخر أيامه فى ضيق مالى شديد اضطره لإجهاد نفسه وأخيراً لإرهاق جسمه والقضاء عليه فى أيام بائسة وصف فى أثنائها هذا المنظر بقوله :

أرى الشمس على سفح تلة « وردلو » تتوص لتغيب وراء وادى « إترك » والريح الغربية هادئة لا صوت لها ، والبحيرة ترقد نائمة عند أقدام التلة. غير أن هذا المنظر بجلال روعته لا يحمل بين طياته تلك الألوان البراقة والجاذبية الخلابة التى كان يحملها فى زمان سالف وعهد غبر.

مع أن يد المساء تطلى بوهيجها شاطئ « إترك » فتكسبه صبغة أرجوانية. ألقيت نظرة على ذلك السهل لأرى تيار نهر « تويد » الفضى ينساب متماوجاً فى مجراه، وأنقاض هيكل « ملروز » قائمة فى كبرياء إلى جانب البحيرة الوادعة .

لكن الهواء العطرى والتلة والغدير والبرج والشجر، مالى أراها تبعث الملل؟ هل هى كما كانت بالأمس، أم أن التغيير هذا فى نفسى فقط ؟ .

ويلاه ! كيف يمكن للوح المقوس المحطم أن تزخرفه يد الدهان؟ وكيف يمكن للقيثارة ذات الأوتار المتشنجة غير المنسجمة أن تتناسق أنغامها مع صوت المطرب الشادى ؟

هكذا كل منظر رائع تتضاءل روعته فى نظر العين المتألمة . وكل نسمة عليلة من الهواء اللطيف تبدو للمحموم زوبعة قارصة . وكل عرائش البادية وجنات عدن قاحلة كهذا المنظر فى نظرى .

* * *

وهذا شاعر الطبيعة وليم وردزورث (١٧٧٠ — ١٨٥٠) وكان شاعر البلاط فى عهده يصف جمال الكون وهو فى شيخوخته وصفاً مشابهاً لوصف « سكوت » فيقول: لقد مضى زمن كان فيه المرج والبستان والغدير والأرض وكل منظر اعتيادى يظهر لى

موشحاً بنور قدسي.

وكأنما أفقت من حلم مروع فأراها الآن مغايرة لما كانت عليه في سالف الأزمان؛ وأنى وجهت نظري في الليل أو النهار تظهر أمامي الأشياء التي كنت أراها من قبل يظهر قوس قزح ثم يتلاشى، وتفتح أزهار الربيع الجميلة ويفنى، حولها القمر الساطع في الليالي الصافية، ويتلألأ ماء الغدير في تلك الليالي القمرة، وتشرق الشمس فتخلب الألباب، بيد أني أينما ذهبت أشعر بأن مجداً سالفاً قد زال عن وجه الكون.

* * *

ويقارب هذا الوصف ما نظمه زميله الشاعر «شلي» وهو يتحسر على الماضي ويتألم لحاضره فيقول:

أيها العالم، أيتها الحياة، أيها الزمن، يامن أقف على آخر درجات سلمك وأنا أرتجف فرقاً حين أنظر إلى أسفل حيث درجات الماضي البعيد.

متى يعود مجدك وعظمة أيامك التي ولت؟

آه! لن تعود! لن تعود!

إن السعادة قد طارت من أيامي ولياليّ.

فالربيع الجميل والصيف النضير والشتاء الأبيض تحرك في فؤادي مشاعر الأشجان دون أن تجلب شيئاً من المسرة والابتهاج. فمتى يعود لنفسي المرح والحبور؟

آه! لن يعود! لن يعود!

وفي فترة من اليأس الشديد صرخ بهذا الشاعر السيء الحظ عندما كان بعيداً عن وطنه يقاسي مرارة الغربة وألم البعد عن الوطن وفرقة الأحباب بعد أن خرج على والده وهجر وطنه فتكبد مشقات لا توصف، في هذه الفترة نظم قصيدة يدعو فيها نفسه إلى العودة لأرض الوطن فيقول:

هيا فإن المرج مظلم حالك بعد أن امتصت السحب آخر أشعة المساء الشاحبة.

هيا فإن الرياح المتجمعة تنادي الظلام! ولاريب أنه سيلبي النداء فيغطي جميع أنوار السماء كما لو كان كفناً شديد السواد.

لا تتريث فقد مضى الوقت، وكل صوت في الطبيعة يناديك بالإسراع لا تغرينك دمعة من صديق أو نظرة من حبيب مهما بالغت في توسلاتها؛ لأن الواجب يدعوك لأن تعود إلى العزلة والانفراد.

هيا أسرع، أسرع إلى وطنك الهادئ الحزين، وهناك اسكب الدموع المريرة على موقده المهجور، وارقب ظلاله القاتمة وهي تتحول من هنا إلى هناك كالأشباح، وانظر إلى تسابيح غريب هناك سداه الكآبة ولحمته المرح. إن السحب التي تسير في السماء لتخلد إلى الراحة في منتصف الليل عندما تسكن الرياح المتعبة، وكما تسكن هذه الرياح فإن القمر كثيراً ما يريح نفسه فيغيب عن عالمنا المترع بالأحزان، وهذه البحار والمحيطات تجد لنفسها فترات تريح فيها أعصابها من الاضطراب المستمر.

كل ما يتحرك إذاً أو يكد أو يحزن لابد له من إغفاءة مريحة. أما أنت فلن ترى الراحة إلا في القبر حيث الخلود الأبدي.

غزة — ابراهيم سكيك

رحلات

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر في الباكستان

وهي سفر جليل في التعريف ببلاد تجاورنا وتواصلنا، والتنبيه إلى رعاية ما بيننا وبينها من أواصر ووشائج أحكمها الله والتاريخ، وهي تمتاز برقة الأسلوب ودقة الوصف وإيراد الطريف من الملح والنوادر في الأدب والتاريخ والاجتماع تزيد عليها فصول من الرحلات الثانية التي ستظهر قريباً.

ثمن هذا المجلد ثلاثون قرشاً عدا أجرة البريد

وهو يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة